الأبعاد الاجتماعية و القومية في شعر أحمد بن الحرمة

بولرباح عثماني
جامعة الأغواط (الجزائر)

الملخـــص :

ارتبط الشعر الشّعبي ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان ،وبيئته،حيث حاول الشاعر الشّعبي أنْ يُحدّد وبكـــل صـــدقٍ معـــالم الذاكرة الشّعبية،ويجعل من إبداعه مادة تاريخية ومصدراً هام من مصادر التأريخ والتوثيق والكتابة ،ولعلّنا حين نقف على الأبعاد الاجتماعية والقومية التي تضمنها الإبداع الشعري للشاعر أحمد ابن الحرمة وهو ينطلق من واقعه المعيشي ويومياته التي حـــاول رسم ملامحها شعراً مفعماً بالجمال من جهة،وما حاول أن يقدمه للمتلقي من رسم لصورة المجتمع الذي نشأ فيه في جو استعماري أقل ما يقال عنه أنّه مظلم الصور من جهة أخرى .

الكلمات المفتاحية: الذاكرة ،الشعر ،الشّعبي ،الصورة.

résumé

Associée à la poésie populaire de près à la vie humaine et de l'environnement , où il a essayé de poète populaire qui fait mémoire populaire , et fait son matériau historique de la créativité et une source humaine et de l'écriture , et publiquement , alors que nous sommes sur les dimensions de la créativité sociale et nationale contenue poétique du poète Ahmad ibn elhorma et est fondée sur la réalité vivre et a essayé de tirer son journal qui dispose d'un poème plein de beauté , d'une part , et a essayé de le soumettre à l'acquéreur de la représentation de la communauté où il a été élevé dans une atmosphère

coloniale pour dire le moins que une image sombre de l'autre .

Poesie-mémoire populaire-creativite-

abstract

Associated with popular poetry closely to human life and the environment, where he tried to popular poet who is popular memory, and makes his historical material of creativity and human sources and writing, and publicly while we're on the social dimensions of creativity and poetic contained national poet Ahmad ibn elhorma and is based on the reality live and tried to pull his diary that features a poem full of beauty, on the one hand, and tried to submit to the recipient of the representation of the community where he was raised in a colonial atmosphere to say the least that a dark image of the other.

Poetry-historical material-dark image-creativity

شكل الشعر الشّعبي الجزائري معلماً بارزاً من معالم الذاكرة الشّعبية الجزائرية، فهو وثيقة تاريخية ــ اجتماعية ناطقة، يمكن أنْ تُصبح مصدراً من مصادر المؤرخ الاجتماعي، فمادته أساسية لا غنىً عنها للكشف عن مختلف أبعاد ومكونات الشخصية الوطنية. فعلى الرغم من تعدّد أغراضه، فقد تميّز ببث الرّوح الوطنية، وبالدفاع عن القيم المختلفة التي اعتنقها الجزائري منذ قرون متطاولة، كنشدان التّحرّر والحرية والكرامة، منطلقاً من التراث القومي باعتباره مَعيناً لا ينضب،دون إغفال معطيات واقع الشّعب الجزائري،مستشرفاً بذلك ومنطلقاً إلى رسم آفاق المستقبل الذي تهفو النفوس إليه وتحن. وعليه فمنطلقات الشعر الشّعبي الجزائري منطلقات واقعية وهو الذي أرّخ بطريقته لهذا الواقع، ولم تكن تلك الصّور التي يلتقطها الشاعر، ولا الخيال الحرّ،ولا أي مظهر آخر، ليخرج الشعر من واقعيته،فهي جميعا تشترك في رسم أبعاد الواقع الاجتماعي، وتحيط بصورة الإنسان ذي الأبعاد الكثيرة.

وبلا شك، فإنّ مضمون الفقرة السابقة لا يشير إلى تحجّر الشعر الشّعبي في قالب أو غرض واحد،فالتّنوع في الأغراض المختلفة سمة غالبة عليه،وتلك حقيقة تبرز ارتباطه بواقع الإنسان وبالجماعة المعبِّر عنها، فقد طرق كل الأغراض من فخر ورثاء وغزل ووصف وحنين و...بلغة عربية متفاصحة تسمو أحياناً إلى مستوى الفصحى، وتنحدر أحايين أخرى إلى درك اللّهجات المحلية، ولكنّها لهجات تظلّ مرتبطة باللّغة الأم/ العربية...

الشعر الشّعبي الجزائري هو شعر صادق،حي الصور،جميل الإيقاع،ينبض بالتجربة وتموج فيه الحياة بفيض ألوانها وألحانها،والمبدع الجزائري يخوض معركة الكلمة،يحمل راية الصمود والتحدي، يواصل الحلم،يدوّن ــ بتجربته الغنية الزاخرة بحب شعبه ووطنه ــ روح الغضب،ينشد أنشودة الشّعب والوفاء والشهداء،ويكتب نص الحرية والإنعتاق،ينسج خيوط الأمل ويرسم معالم الطريق المخضّب بالدّم الجزائري النّازف،ويستشرف المستقبل المتفائل حتى ينتصر الحق ويبزغ الفجر،ويشيع الخير والفرح وجمال الحياة.

إنّ الشاعر الشّعبي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأسباب الحياة والمعيشة والعلاقات الاجتماعية، وهي أسباب مادية،وبذلك يكون شأنه شأن أي إنسان آخر، يخضع لقوانين الحياة ومتطلبات العيش والضّرورات الاجتماعية.

لقد اهتم الشعراء الجزائريون سواءً الذين كتبوا الفصيح أو الشّعبي بقضايا عديدة دينية واجتماعية وقومية وغيرها، فلا نكاد نلمس قضية مستقلة بعينها وإنمّا كان يعالج ذلك كله لربما حتى في القصيدة الواحدة.

وإبن الحرمة واحدٌ من هؤلاء الشعراء، فعلى الرغم من أنّ شعره ذا منحى صوفي غلب جل إنتاجه الشعري، إلاّ أنّه لم يغفل عن تناول بعض القضايا الاجتماعية، فهو محذرٌ من بعض السلوكيات الاجتماعية الدّخيلة على مجتمعنا، والبعيدة عن سلوكيات أبنائه وعاداتهم.

فمن خلال شعره الاجتماعي القليل، نراه يلاحظ ولا يتوانى في التنبيه أو التحذير أو الإشارة إلى القضايا والموضوعات التي ينفعل لها انفعالا قوياً ويتألم منها تألماً كبيراً، لأنّ الشاعر الملتزم ينصب نفسه حامياً للقيم وراعياً للمثل.

لقد كان شعر إبن الحرمة الاجتماعي عبارة عن رسالة نقدية لما يراه ويلمسه، وإنْ شئت قُلنا أنّه عبارة عن ضمير المجتمع ،يستاء عندما يعتري المجتمع تبدّلٌ أو تغيّرٌ، أو حتى تخلى عن تلك القيم الموروثة، فيثور للدّفاع عنها. وعندما تصفحنا قصائده وجدنا في شعره هذا اللّون من النقد فجاز لنا أنْ نقول أنّه واحدٌ من أولئك الشعراء الذين حاولوا تنبيه المجتمع كي لا تتهدم قيمه وعاداته بسبب فساد بعض النماذج، فهي بمثابة الأمراض المعدية التي يجبُ محاصرتها والقضاء عليها.

فالشاعر ومن خلال قصيدته (الظّنُ خَابْ)[1] يبدي تحسره وأساه جراء موت رفاقه، وتغيّر أحوال الدّنيا، وظهور سلوكيات اجتماعية دخيلة على المجتمع الجزائري ومن بين هذه السلوكيات التي نجد الشاعر قد أشار إليها وحذر منها،

تشتت وانقسام العلاقات الاجتماعية جراء اختلافات ثانوية لا قيمة لها ولا كيان وأصبح أفـراد المجتمـع يتخاصـمون ويتفرقون من أجل قضايا غير مهمة ويمكن الاستغناء عنها كل هذا أورده الشاعر في مطلع قصيدته التي جاء فيها :

حَسْرَاه يَا الدُّنْيَا ضَاقَتْ الأَروَاحْ ** صَدُّوا رْفَايْقِي وَبقِيتْ اَنَايَا
عَادْ الزَمَان يَتْقَلَب فِي الأَرِيَاحْ ** الأَحْبَاب تَتفَرَقْ عَنْ جَالْ وَقِيهْ[2]
وَجهْ الحَبِيبْ ذَرَكْ[3] تُبَاع بِلاَ أَربَاحْ ** يَتْحَاسْبُوا عْلَى حَاجَه دُونِيَه

ثم ينتقل بنا إلى الحديث عن ظواهر اجتماعية وأخلاقية لم يعهدها الشاعر فثارت نخوته وراح ينقدها ويتذكر تلك القيم التي ضاعت وتلاشت، ولم يعد الحديث عنها (كالكرم والجود والإقدام والشجاعة) فنجده يقول :

زَلْ[4] الطعَامْ الأَحْمَر وأَهلْ التَشبَاحْ ** عَادْ المَلِيحْ يَتْعَرضْ عْلَى قَلاَيَة
كَانُوا قْبِيل فِي الدُنْيَا نَاسْ ملاَحْ ** رَحْلُوا غْدَاوا خَلاَوْهَا مَحْكِيَه

ومع أنّ اللّغة العادية والمباشرة تكون في بعض الأحيان عاجزة عن محاصرة الواقع والإمساك به، ولهذا يكون إلزاماً على الشاعر في هذا المقام أنْ يستعين بالمعاني ،والألفاظ الرّمزية حتى يمسك باللّفتة الشاردة ،ويشير إلى الفكـرة الماردة فيرُدها إلى عالم الإبداع،وهكذا ما لم يستطع الشاعر قوله في أسلوب عادي ومباشر يفصح عنه بأسلوب رمزي مدثر بالإيحاء فنجده يبرز غياب الصيد الذي يعبرُ عن الشجاعة والشهامة في المجتمع،وقد حلّ محله الخـوف والهلـع فنجده يقول في هذا المقام :

الصَيدْ مَاتْ هَذِه دَوْلَة فَرَاحْ ** والطِيرْ غْلَبْتُه الرَخْمَة والحْدَايَه[5]

ومن الظواهر الاجتماعية التي انتقدها إبن الحرمة أيضاً عزوف أهل الدّين والصلاح والورع، عـن مهـامهم واشتغالهم بأمور الدّنيا التي لا تسّمن ولا تغني من جوع.

كما أشار الشاعر في ذات القصيدة إلى بعض السلوكيات التي يراها دخيلة على الأوساط الاجتماعية التي نشـأ فيها وترعرع،ولم يكن له عهدٌ بها فراح ينتقدها تارة بالتلميح وتارة بالتصريح وتارة أخرى بالتجريح كعدم اهتمام أفراد المجتمع بالذهب،وأصبح لا قيمة له وأصبحت المحرمات مباحة كالحرير مثلاً. وبما أنّ الشاعر مرآة عاكسـة لأحـوال المجتمع،فإبن الحرمة هو الآخر يتألم من عدة سلوكات اجتماعية ويشير إليها قائلاً :

عُمْرِي فْنَات مَنْ هَذَا الجِيلْ أَقبَاحْ ** ولِى البُو يْطَـاوَع فِي الذَرِيـه[6]
الرَأيْ لِلذْرَارِي والشَايبْ جَاحْ ** قَالُوا بْلاَ عَقـلْ مَا يَعْرَف حَيَّه
**

فهو يشير إلى ظاهرة خطيرة عالجها من باب ديني وهي عقوق الوالدين. وخروج الشباب والأبناء خاصة عن طاعة الآباء. ومن جانب آخر نجد الشاعر يحذر من غرور الدنّيا ويصوّر حالاتها وتقلباتها فهو بمثابة الناصح الأمـين والمرشد الحكيم ،فهو لم يبخل بالنصيحة والتنّبيه من تقلبات الدّنيا فراح يقول :

**
واللِّي سْعَاوا الدُنْيَا رَاحُوا قُمَاحْ ** وبْلاَ عُقُول غَرَّتهُم هَاوِيَه

ثم يبيّن هذه التّقلبات فتارة نجد الإنسان سعيداً ،وتارة حزيناً هذا التحذير جاء به الشاعر رمزياً واستعمل صوراً ذات بُعد رمزي ،يقرب الفكرة ويجسدها في معاني أكثر وضوحا وتجلٍ فنجده يقول :

لَيْلَة تْبَات ظَلْمَه لَيْلَة مَصبَاحْ ** نُوبَة سحَابْ نُوبَه شَمسْ ضْحِيَه
نُوبَه شْرَابهَا طَيِّبْ عَسَلْ الأَشبَاحْ ** نُوبَة مْرَار قَطْرَان الجَبْلِيَة
نُوبَة تْعُود تَبْكِي فِيهَا نوَاحْ ** مَنْسَى مَنْ العِبَاد اللِّي مَنْسِيَه[7]

فابن الحرمة ومن خلال عرضه لأحوال الدّنيا نجده ضاق مرارتها فراح يتحمّل عبء رسالته الشـــعرية وراح يُحذر العاقل من مجاراة الدّنيا لإنهّا لا تؤمن عواقبها فهي ذات أحوال متضادة فساعة الفرح تقابلها ساعة الحزن،وساعة التفوق تقابلها ساعة الإنغلاب إلاّ أنّه يشير دائماً إلى المنحى الدّيني في شعره فيدعوا إلى الصبر والتوبة ،والإنابة إلى الله فنجده يقول في آخر قصيدته :

الصَّابرِينْ لَيْهُم رَبِّي فَتَاحْ ** والتَايبِينْ لَيْهُم ذِيكْ وْذِيَه

ولم يتوقف الشاعر عند هذا فحسب،بل نجده أيضاً أشار وانتقد بعض السلوكيات التي عايش الشاعر أصحابها في مجتمعه الذي يُعد ابن الحرمة جزءاً منه فيسرد لنا في قصيدته : (لزرق ولد الحمام)[8] هذه النماذج الغير سوية، إذ وبعد المقدمة التي نلمس فيها إرسال الشاعر طائر الحمام إلى شيخه ببغداد مبلغاً أياه حالته المزرية جراء ما حدث لـــه مـــن هموم ومصائب فيقول :

لَزرَقْ وَلدْ الحْمَام[9] نَكْتَبلَك عُنوَانْ ** يَا مَرْقُوم الجْنَاح بَجمِيلَكْ فِيَّه
بْرَى بُوصَايْتِي أَتْعَلَى فِي لَمزَانْ ** حِيْن تَوْصَل لبُوعْلاَم رَايس لَولِيَا
جِيْتَك مَرْسُول قُلُوا مَنْ عَنْد فلاَنْ ** أَخْدِيمَك رَاهْ فِي حْوِيلَة دُونِيَّة

وكما نرى في المقدمة فالأبيات ليست من غرض المدح أو التوسل، بل الشـــاعر يـــدعوا مـــن خلالهـــا إلـــى الاستنهاض،ومعالجة الواقع المزري الذي أصبح يعاش،إذ راح ابن الحرمة يصف هذا الواقع الذي تغيّر وتغيّرت معـــه معالم الدّنيا والدّين،وكيف سادت قيم فاسدة حلّت محل القيم الاجتماعية الفاضلة والشيم النبيلة فيقول في هذا المقام :

قَلْبِي رَفرَفْ كِيْ الطِيرْ أَبْلاَ جنَحِينْ ** مَتْنَقَض خَاطْرِي عْلَى هَذِي الدُنْيَا
بَلْحَق رَانِي وْحِيد مَنْ عَمَّة لَقرَانْ ** واللِّي دَرتْ حَبِيبْ يَستَهْزَا بِيَا
مَنْ تَعْطِيهْ العْسَل إِرْدُولِي قَطرَانْ ** خَيْرِي يَنْسَاه عَادْ مَنْ نَاسْ أَعْدَايَا

فهذه السلوكيات التي يراها الشاعر دخيلة على المجتمع المسلم لم يرض لها،بل انتقدها وراح يحذر ضمنياً من أصحابها المخادعين.

ليبدأ بعهدها في وصف التّغيير بالتفّصيل ،والإبانة وكيف أنّه مس فروض الدّين، وحرّك دعائم المجتمع ،وأثـــر فيه وفي قيمه وتقاليده،فيقول محدداً هذه المساوئ الواحدة تلو الأخرى :

دَوْلَة هَذَا الزْمَان مَا فِيْهُم لَمَانْ ** يَخْدَعْنِي غِيرْ صَاحْبِي واللِّي لِيَا
تَارْكِينْ الصْلاَة حَلاَفِينْ لَمَانْ ** مَا فِيْهُم مَا يْحَب رَبِّي مَوْلاَيَا
أَجْمِيعْ اللِّي اتَظُن فِيهْ مَنْ الشُبَانْ ** هَذَاكْ اللِّي غَرْقَك لِلْقُطَايَة [10]
أَهلْ الفَتْوَى يْعَاونُوا مُولْ المِيزَانْ ** وأَهلْ الحِيلاَت غَالبِينْ أَهلْ النِيَّة
والقَاضِي هُو خصِيمْ لِلْفَقِير أَشحـــَان ** والرَشْوَة جَارْيَة مَحْسُوبَة أَهْدَيَة
يَحْكَم لِلِّي اجِيبْلُوا دُورُو شَرنَانْ ** واشْهُودُوا كَامْلِين أَمْضَاو لِلْغُنيَة

فالشاعر من خلال هذه الأبيات التي نراها نقداً لاذعاً لمثل هذه السلوكيات كانحياز الفتوى إلى أهل المال والجاه، وحيف القضاة وظلمهم للفقراء، وإتباعهم لسبل الشيطان،كما أنّهم لم يوفوا ما عليهم من واجب،وراحوا يظلمون الفقراء والضعفاء الذين لا نصير لهم،ويتعاملون بالرشوة التي أمست جارية بينهم ويحسبونها هدية، وقل أصبح حكم القاضي في نظر الشاعر رهين النقود المقدمة له (يحكم للّي إجيبلوا دور وشرنان) وهذه القصيدة وغيرها ممّن تناول فيها إبن الحرمة القضايا المتعلقة بالمجتمع وما شهده من تحولات في الأفعال والسلوكيات، ترجع قيمتها في كونها تصويرٌ لحال المجتمع الجزائري في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين،بأفراده وجماعاته وتسجيلٌ لما طرأ عليه من تبديل في أحواله وتصرفاته بفعل التّدهور الاجتماعي وكذا بسبب الاستعمار، فالأوضاع إذاً تقلبت سافلها على عاليها.والملاحظ على شعره، هو تداخل المواضيع والقضايا في قصيدة واحدة يطغى عليها البعد الصّوفي والدّيني الذي يبقى الخلفية والمرجعية بالنسب للإبداع الشعري للشاعر مهما تنوّعت المواضيع والقضايا والأغراض التي أبدع فيها الشاعر.

والحقيقة أنّ الشعر الشّعبي الجزائري هو الشعر الذي أبدعته ونسجته مخيلة عامة الجزائريين عبر العصور المتعاقبة من تاريخ الجزائر ، وتناقله الأجيال مشافهة جيلاً بعد جيل،ولكلّ جيل إضافات تتطلبها المواقف المستجدة والأحداث المتعاقبة ،والقضايا المتعدّدة ،والناظر في هذا الإبداع الشعري الشّعبي يُلاحظ طغيان المعاني والدّلالات الاجتماعية عليه،فهو بذالك ابن البيئة الاجتماعية ،بها ولد وعلى أرضها وتربتها نشو ترعرع،فهو بذالك المرآة الصادقة والأمينة ،حيث رصد كل ما يتعلق بها .

من جهة أخرى ومن خلال تتبعنا للمنجز الشعري عند ابن الحرمة وقفنا على غرض شعري آخر كان له حضوره البارز في إبداع الشاعر، وهو البعد القومي والسياسي،الذي ارتسمت ملامحه في عدد من القصائد الشعرية إن لم نقل أنّه نال القسط الوافر من شعر إبن الحرمة، كونه آمن بقضايا أمته، وأكد على تعلقه بها، فراح يشاركها أفراحها وأتراحها كما دعا إلى محاربة الاستعمار في كل قطر عربي مسلم، لأنّ الاستعمار في تصوّر الشاعر وحيثما حلّ فهو خطرٌ يهدد كيان الأمة العربية والإسلامية، وعليه أكد هذا الأخير على محاربة كل وجوهه،وبذل الجهود للقضاء على كل أشكاله وألوانه ومبرراته.

وعلى الرّغم من أنّه كان يعيش فترة استعمارية مظلمة حملت معها الآلام والأحزان التي كان يعيشها الشّعب الجزائري. ولكن هذا كله لم يمنع الشاعر من اتصاله يوماً من الأيام بأمته العربية وانتمائه لبلاد الإسلام، وفي هذا الصدّد يقول الدكتور عثمان سعدي:((فقد أدى الأدباء والشعراء الجزائريون رسالتهم في هذا الميدان رغم الستار الذي فرضته السلطة الاستعمارية على الجزائر، وقد عملت الإدارة الاستعمارية منذ دخولها الجزائر عام 1830م على جعل الجزائريين ينسون ماضيهم العربي من أجل أنْ تفقد الجزائرُ ذاكرتها العربية ...))[11].

هذا ما يبرز تعلقَ الشعراءِ بقضايا أمتهم، فهم ما تركوا ذكرى أو حادثة مفرحة كانت أو محزنة على أقطاره إلاّ وعبروا عنها وجسّدوها ضمن إنتاجهم الشعري والإبداعي.

بيد أنّ الدكتور التلي ابن الشيخ يذهب إلى القولِ بأنّ((الشعر الشّعبي شعرٌ إقليمي لم يتناول القضايا القومية أو الإنسانية ورغم إدراك الشاعر لأهداف الغزو الاستعماري البعيدة من أنّه غزو للإسلام ...))[12].

نحنُ لا نتفقُ مع رأي الدكتور في هذه النقطة، لأنّ الشاعر الشّعبي، وهذا ما اتفق عليه جل الباحثين لم يكن منغلقاً على نفسه أو غافلاً لا يميّز بين الأشياء أو ثقافته محدودة تعيقه عن فهم ما يدور حوله، فالشاعر الشّعبي جزءٌ لا يتجزأ من هذا العالم الذي يحيط به، تماماً كالشاعر الذي يكتب باللّغة الكلاسيكية، له نظرة متبصرة دقيقة، إذْ كيف تفسر النفوسَ التي اهتزت بقصائد رائعة في حرب فلسطين سنة 1967م و 1973م أو في قضية الصحراء الغربية، بل إنّ بعض الشعراءِ الشّعبيين كانت له قوة نظر نفاّذة كما يلحظ ذلك عند الشاعر أمعمر بن الجنيدي[13] الذي تنبأ منذ

العشرينات بالثورة الكبرى، وهذا لو لم تكن له دراية ونفاذٌ إلى قلوبِ هذه الأمة التي تستكين إلى الظلم ولا تقبلْ الاحتلال، كما أنّ لبعض الشعراءِ قصائد خلّدوا بها مآسي الإنسانية في الحربين العالميتين، وتحدثوا عن هتلر والنازية .....

واِبن الحرمة كما قلنا واحدٌ من هؤلاءِ الشعراء، إذْ خلّد من خلال قصيدته الرائعة حرب إسطنبول ضد الروس، والتي راح الشاعر يشيد فيها بالدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد. ويعتبره بطلاً مغواراً وقائداً باسلاً أضاقَ الروس وجيوشه العذاب المرير، ويبرز من خلالها أيضاً تعلقه بإسطنبول وأهلها، متمنياً انتصارهم على الروس الذين تغشوا وحاولوا طمس تاريخ المسلمين والسيطرة عليهم، بيد أنّهم وجدوا الخلافة العثمانية بالمرصاد وعلى رأسها السلطان عبد الحميد فيقول في بداية قصيدته :

غَاسَتْ الأَخْبَار مَا أَلْفَى لِيْنَا مَرسُولْ ** وَاشْ اللِّي صَار يَدْرَى فِي ذَا الغَيْبَة
قَلْبِي مَمْحُون زَادْنِي هُولْ عْلَى هُولْ ** رَانِي مَرْهُون فِي بْلاَد المُصِيْبَة
ضَاقَتْ رُوْحِي مرِيضْ مَنْ وَحشْ أَسطَنبُولْ ** عَقْلِي لَهْوَاه رَاحْ والقَلْب دَرْبِى

وبعد هذا الشّوق الذي عبر من خلاله الشاعر عن لهفته وشدة شوقه إلى مدينة أسطنبول وهو ينتظر أخبارها وما دار فيها من مصائب وما لقته من محنٍ ورزايا.

لينتقل بعدها إلى التضرّع والشكوى إلى الله عساه يرفع الغبن والمذلة، ويقضي على جور الروم وطغيانهم.

نَبْغِيهْ يُنْصُر العُثْمَانِي ** عَجْمِي عْسَاكَر أَسطَمبُولْ
نَبْغِيهْ يُنْصُر العُثْمَانِي ** ونَغْلْبُوا عْلَى النَصْرَانِي
فِيَّ يَهْلَك الرُوْمَانِي ** يَجْنَى مَنْ الوطَنْ مَذْلُولْ

فمن خلال هذه الأبيات نلمس تحمسه ونصرته للسلطان العثماني عبد الحميد الذي يراه الدّرع الواقي للخلافة الإسلامية وبجيوشه يقضي على الحكم الرّوماني ويطرد من أراضي المسلمين.

ومن جهة أخرى نجد الشاعر يعبر عن حزنه وآساه جراء ما فعله الروم فيهم، ولكن ومع هذا كله تمنى أن يشرق شمس اليوم الجديد ،الذي تبزغ فيه الأنوار الهاشمية على كل الأرجاء والأمصار.

بْعد هذا يحاول اِبن الحرمة أنْ يبرز الدّور الذي لعبه السلطان العثماني عبد الحميد كونه قضى على الظلم والظالمين، ولا يقف الشاعر عند هذا فحسب، بل ومن خلاله صوفيته التي طغت كما رأينا على جل إنتاجه الشعري، يعود بنا إلى القول بأنّ النصر لن يكون حليف المسلمين وقائدهم السلطان عبد الحميد إلا إذا وافق الرسول صلى الله عليه وسلم ولن يفوز جنود المسلمين على الروم إلا إذا حضر المعركة العشرة المبشرين بالجنة إضافة إلى هؤلاء لا بد أيضاً من حضور عبد الله بن جعفر الذي تمنى الشاعر أن يكونَ النصر على يده ويقضي على جيش الروم وطغيانه، ونشير هنا إلى أن هذه القصيدة تحمل في طياتها بعض العناصر التخيلية لدى الشاعر.

عَبدْ الحَمِيدْ زَادْنِي فِي الرَقْبَة طُولْ ** بِالعَزْ الله يُنْصُر غَالِي النَسْبَة
نَاضْ عْلَى المُوسْكُو عْدُونَا عَادْ يبُولْ ** أَعْطَى عُنْقُه لْسِيفنَا تَحتْ الضَرْبَة
يَا ثَلثْ مْيَه مْعَ ثْلاَطَاعَشْ رجُولْ ** شَهْدَا بَدْر فَرْجُوا هَذَا الكَرْبَة[14]
أَنَا قَوْلِي عْلِيه لَحَاقْ المَفْصُول ** عَبدْ الله يَا شَيْبَة الأَدْرَع بُورُوبَة
غِيثْ إِسْطَنبُول حَضَكْ بِيدَكْ مَفعُولْ ** وأَجلْ الرُومَان بَرْهُم يبْقَى خَرْبَة

ولتأملِ الروح الإسلامية وعمقها في نفسية الشاعر وكرهه المطلق لأعداء عقيدته، يعبر عن سـخطه ومقتـه الشديد لهم، وفي نفس السياق يدعوا كل المسلمين من كل حدبٍ وصوبٍ إلى الالتحاق بالجيش التركي حتى يقضي على الروس وجنده.

هَدُّوا غَبْشُوا أَعْلاَمكُم خْفَاه يزُولْ ** حَوْطُوا المُوسكُو أَفْنُوه اِبنْ الكَلْبَة
جِيْبُوا الرِيَات كِي عْوَايَدكُم وطبُولْ ** الأُمَرَاء كُل حَدْ يُخْرُج بِالنُوبَة

ولم يكتف اِبن الحرمة بهذا فقط بل نجده في قصيدة (صلوا صلوا يا لي حضار)[15] التي تضمّنت إشـارة إلـى حرب الروس مع الأتراك وكيف استطاع جيش هذا الأخير القضاء على تعسف وجبروت الروس.

لَتْرَاك الشُجْعَان تْمَهَر ** هِيَّاجْ كِي أَفْوَاه الغُولْ
مْصَدْقِين أَخْبَر نْبِيهُم ** يَومْ الحِسَابْ يَشْفَع فِيْهُم

وللإشارة أيضاً فالشاعر كان من أشد المعارضين للتجنيد الإجباري لأبناء الجزائر المسلمين ضمن جيوش فرنسا الاستعمارية، وهذا بنص رسالة بعثت إلى الحاكم العسكري الفرنسي بمقاطعة غرداية، وكان اِبن الحرمة من الذين وقعوا هذه الرسالة فهو يقول في هذا السياق :

مَا بْقَاتلِي حُرْمَة فِي جِيلْ دَوْلَة الرُومْ ** مَنْ شْرَب كَاسْ مَنْ العَصْيَان خَرْفُو
عَادْ مَحـْرَم حَتِّى مُوشِي وخُوهْ شَالُـــومْ. ** دَايْرِين حُكُومَة عَادُوا يْطُوفُو

ويقول أيضاً هو في سياق حديثه عن الإستعمار الفرنسي. وما عاناه الشّعب الجزائري.

رَانِي مْثِيل طِيرْ دَاخَلْ الأَقْفَاصْ ** مَسْجُون فِي بْلاَد نتَاعَتْ كَفْرَا
اِيْشَرْفُوا يْهُودَة مَنْ حُبْ الرَاسْ ** ويعَظْمُوا الصُلْبَان مْعَ الحَجْرَا

وقد تمنى الشاعر أنْ تعود السيادة للجزائريين وأنْ يزول الاستعمار من على أرض الفتوحات فيقول :

يَفْتَح رَبِّي إِنْ شَاء الله وتْجِي لأَنْصَار ** بَن عَبْد الله مَنْ النْحَاس شَبَّنَا
يَهْدَم سَاسْ العْدُو اِسكَنْهُم لَبْحَار ** رَبِّي يُنْصُر عْلاَمنَا كِي مَا كُنَا

وقد حقق هذا النصر بعد وفاة الشيخ بحوالي ثمانية وثلاثين سنة والحمد لله.

لَتْرَاك لِلْعُدُوا زَدَّامَة ** رَجَالَه أَمْسَبْلَة وأَقْيَامَه
بَسْيُوف تْقَسَم الجَمْجُومَة ** مَنْ مَكْنُوه طَاحْ أَسهُولْ
الخِيلْ والعْسَاكَر تَرْهَب ** وَأْسلاَحْ بِالعْمَايَر تُضرُبْ
قَدَاش مَن كَافَر اِسْتَسْلَم ** وطَوْعُوه يَرْجَع يَخدَمْ

وهكذا فالشاعر متحمّس للنصر على الروم وجيشهم ويصف من خلال هذا المقطع جانباً من معركة لم يراهـا، بل تخيلها ورسم أبعادها،هذا وإن دلّ فإنما يدل على إيمان الشاعر بقوميته العربية وحرصه على الـتلاحم بـين أبنـاء الوطن العربي.

وبما أنّ الشاعر – كما رأينا – ذا نزعة صوفية. فإنه لم يغفل قصيدته في الأخير من التوسّل بالشيخ عبد القادر الجيلاني عساه ينصر جيش السلطان عبد الحميد ويغلبَ جيش الروم، فيقول :

أَهزَمْ الرُوْمَان بِالله قَلْبُه مَدقُولْ ** يْرُوحُوا إِنْشَاء الله جْنُودُه مَغْلُوبَة
بْجَاه الصَالْحِين رَايَســْهُم جَلُولْ ** سُلْطَان العَارْفِين عَجْمِي وعْرُوبَة

ومن جهة أخرى لم يكن الشاعرُ غافلاً أو متغافلاً للوضع المزري الذي كان يعيشه أبناء وطنه، بل كان من الرافضين للتواجد الاستعماري في الجزائر وكان دائماً يفهمُ الناس أنّ لا علاقة بين الجزائر وفرنسا وكان دائماً يصطلح على تسمية الدولة الفرنسية بدولة الحمير النصرانية، وكان يبعث روح الجهاد في أبناء منطقته الذين كانوا قادة وجنودًا للمقاومات التي اندلعت في منطقة الشاعر أو نواحيها.

وندرك من خلال شعره السياسي القومي أو حتى الوطني أنّه كان على ارتباط وثيق بأمته العربية والإسلامية وعبّر ما أمكنه التعبير عن وجدانه نحو أمته، وأكد انتماءه القومي لهذه الأخيرة.

ونجده من خلال ذلك يفتخر بماضيه العريق متحدثاً كما رأينا عن مجد أجداده وبطولاتهم التي بقيت بصماتها إلى اليوم، وفي هذا السياق يقول الدكتور عمر الدقاق:((وإنّ من الشعر القومي ما كان شديد الشبه بالشعر الحماسي القديم الذي يتسم بالطابع الذاتي وتتجلّى فيه أيضاً مشاعر الجماعة على السواءِ ...))[16].

والحقيقة التي لا بد من الإفصاح بها ،هي أنّ الأمة العربية والإسلامية كيانٌ واحد على اختلاف شعوبه، ولئن فرقت بينهم القوى الاستعمارية والحدود الجغرافية، كما أنّ الأمة الغربية في تاريخها السياسي أو الأدبي أو في ضميرها الاجتماعي وحدة متكاملة في شتى ظروفها سياسية كانت أو اجتماعية أو حتى ثقافية، رغم ما بسدودها من آثارٍ محلية ضيقة الجوانب.

والشعراء الشّعبيون وإبن الحرمة واحدٌ منهم يعرفون معرفة جيدة وذكية ترتيب الألفاظ وتركيب المعاني والتّعبير بأسرار البلاغة فيتحدث كل واحدٍ على طريقته وأسلوبه الذي يختاره.والشاعر البليغ حقًا هو الذي يضع الألفاظ على قدر المعاني وضعًا رشيقًا يفتن العقل والذوق معًا.وقد استطاع إبن الحرمة ومن خلاله إنتاجه الشعري المتنوّع الأساليب والطرق العجيبة فيضرب الأمثال الرائعة تارة أو يغوص في ثنايا الحكمة والزهد، أو يتبحر في ثنايا القصص التاريخية والسر في ذلك هو أنّ الشاعر يعبر عن نفسه بقوة حتى يبدو التعبير على لسانه،ومن فيض روحه وضع بيانه لسامعه وكأنه بذلك قد تغلّغل في نفس السامع فيراه يتماشى مع ما يشعر به ويعكس مأساته أو أفراحه أو تصوّفه.

وهناك خاصية أخرى في الشعر الشّعبي،تنتظم عند معظمه وهي أنّ هؤلاء الشعراء يتقاربون في معجمهم اللّغوي وتتماثل أساليبهم وصوّرهم وتتقارب نظراتهم وتتشابه صياغاتهم فهم أبناء عصر واحد وبيئة ثقافية واحدة. لأنّ الشاعر الشّعبي كما يرى عبد الله ركيبي كان ينظر إلى الواقع من خلال منظار واحدٍ يجمع بين جل الشعراءِ إن لم نقل كلهم، ولعلّ هذا ما يفسر أنّ التطور أو التّغيير مسّ المضمون والمحتوى ولم يمس الأسلوب أو الشكل[17] .

نعم إنّ اللّغة الشعرية الشّعبية تعتمد على مهارة ودقة في توصيل المعطيات الفكرية الحية، وتفجير أبعادها ومخاطبة أعماق الإنسان، وهي خالية من التعقيدات اللّغوية، ولو درست دراسة ميدانية دقيقة ستظهر لنا الجوانب

الأسلوبية والبلاغية، والصوتية الكامنة في ثنايا المفردات أو الجمل.هذا ما يلمسه الدارس للغة أحمد إبن الحرمة الشعرية، فهي لغة الشعراء الفحول التي تتميز بالسهولة، والبساطة، وذات موسيقى خفيفة يتلاءم فيها (الإيقاع/اللّحن).

فإبن الحرمة كان يختار الكلمات التي لها أثر ثم يساهم في وزنها ويضعها في قوالب وزنية جاهزة وبذلك يضفي عليها جانب السهولة واليسر.

لما كانت لغة الشعر الشّعبي عمومًا تجسّد يوميات الفرد وتعبّر عن أسراره ومقاصده أضحت مثقلة بجماليات اللفظ المشحون بالطاقة الشعورية التي تتوهج من ثنايا الواقع، وفي هذا السياق نقول أنّ الألفاظ والكلمات التي استخدمها الشاعر الفحل إبن الحرمة يمكن إعادتهاإلى العربية الفصحى بنسبة كبيرة، وإنمّا لم يلتزم فيها بقواعد الإعراب ليس إلا.

ومن جانب آخر نقول أنّ الألفاظ الذي استعملها إبن الحرمة متداولة في الوسط الشّعبي ولا تخرج عن مضامين البيئة التي عاش فيها،وهو نستطيع أنْ نحصر لغة إبن الحرمة في عدة مجموعات. فإذن نقول أنّ الكلمات التي استعملها الشاعر حملت في طياتها البّعد النّفسي والاجتماعي،بالإضافة إلى هذا نجدها تحتضن خيال الحكايات والأساطير، كما أنهّا مليئة بالرّموز والإيحاءات.

يمكن القول بأنّ الشاعر الشّعبي عمومًا يعتمد في كتابة قصائده على مدونة لفظية يضفي عليها الطابع الفني الجمالي، كما هو الحال عند إبن الحرمة الذي نجده يختار الكلمات والألفاظ التي

يجدها يؤدي المعنى،وتقرّب الفكرة وتكون ذات تراكيب بسيطة ومفهومة، يعمد فيها إلى جعل الصور مجسّمة وتثير العجب وتحرّك المشاعر وتلهبها. وعلى العموم فلغة إبن الحرمة ذات رشاقة لفظية،وموسيقى تناغمي، كما نلمس تنوّع الجمل والتراكيب من حيث الطول والقصر، ممّا يسهل حفظها ويساعد على تداولها وانتشارها.

ومازال هذا الإنتاج الشعري والإبداعي المتميّز والفتي بحاجة إلى دراسات يقف من خلالها الدارسين والمهتمين بحقل الدراسات الشّعبية والشفهية على هذه المعاني والدلالات والأبعاد التي تضمنها هذا الشعر الذي لازال يفوح بعبق الانتماء الوطني والقومي والإنساني .

الهوامش والإحالات :

هو الشيخ الشاعر سيدي احمد بن الحرمة السماحى , اليحياوى,المشيشى,الادريسى الحسنى,العلوي الهاشمي الشريف.ولـد شاعرنا حوالي سنة 1835ميلادية بمدينة بريان جنوب الاغواط, و تربى ونشأ و ترعرع فيها يتيما ,فتأثر بجوها الرائق و جمالها الخلاب لكونها واحة جميلة ذات أشجار و نخيل و مياه رقراقة , فنشأ شاعراً محباً للجمال, فصيح اللّسان, جامح الخيال, رهيـف الإحساس, سرعان ما حفظ القرآن و المبادئ الأولى للفقه و اللّغة فتوجه غالى حاضرة الاغواط موطن أخواله الأرباع, فأخذ العلم عن مشائخها فازداد معرفة بدينه تمسكا به, لذلك نشأ صالحاً محافظاً على الصلوات في وقتها له غيـرة علـى الإسـلام و المسلمين, و له محبة كاملة لآل البيت النبوي لا تنفصم عراها لأنّه منهم كان شيخنا و شاعرنا ابن الحرمة مرشداً نصوحاً, أبيًـا معتمدًا على نفسه, عفيف اليد و اللسان, سخياً مضيافا, جعل بيته زاوية يستقبل فيها الزوار اللذين يأتون من البلاد البعيدة كأقصـى المغرب و آهل توات, يستمعون إلى أشعاره الحكيمة و البليغة و إلى نصائحه الغالية ثم يرجعون إلى أوطانهم ناشـرين كـل مـا سمعوه و وعوه وتعلموه منه.كان شاعرنا ملازماً لداره, لا يطمع فيما عند الناس إلا ما جاءه على سبيل الهدية يأمر بـالمعروف و ينهى عن المنكر و لا يقبل نكث عهد.

اشتغل بمدح الرسول الأعظم صلى الله علبه و سلم و آل بيته, و الصحابة الكرام رضي الله عنهم خاصة الخلفاء الراشدون و العشرة المبشرين بالجنة ثم الأبطال الفاتحين أمثال سيدنا عقبة بن نافع و عبد الله بن جعفر, والأولياء الصالحين و على رأسـهم شيخه الروحي سيدي عبد القادر الجيلانى.

و كانت وفاة شاعرنا ليلة الاثنين 8 شعبان1342هجرية الموافق لسنة 1924م ببريان،ولاية غرداية .

1- ص 50.

2- وقية : قطعة فضية.

3-ذرك: الآن.

4-زل: انقطع.

5- كناية عن تغيّر الموازين .

6- الذرية : الأولاد.

7-كناية عن الواقع المعاش .

8- مطلق عمار بن الحاج سعد،ديوان الشاعر الفحل الشيخ أحمد بن الحرمة البرياني،مصدر سابق،ص 65.

9- رسول الشاعر ومندوبه وقد يكون طائراً أو إنسان.

10- القطاية :مقدمة الشعر .

11- ، ص 06.

12- ، ص 143.

13- شاعر من منطقة الأغواط، ولد سنة 1871م، وتوفي سنة 1940، له ديوان شعر حققه الباحث مصطفى حران.

14- إشارة إلى غزوة بدر الكبرى.

15- مطلق عمار بن الحاج سعد،ديوان الشاعر الفحل الشيخ أحمد بن الحرمة البرياني، مصدر سابق ،ص 70.

16- ، ص 32.

17- ،ص708.